عدد خاص لوقائع المؤتمر العلمي الدولي الثاني للعلوم الانسانية والتطبيقية والصرفة
جامعة المصطفى الامين بالتعاون مع كلية اصول الدين الجامعة
للفترة 21-22 شباط 2023 تحت شعار "البحث العلمي بوابة التنمية والتقدم"

نظرية النظم وجهود البلاغيين في قضيتي اللفظ والمعنى

م.د حامد عيسى كريف ظاهر

hamidessa@ouc.edu.iq

كلية أصول الدين الجامعة – قسم اللغة العربية

الملخص

هذا الملخص يقدم إضاءة لما ورد في البحث الموسوم بـ (نظرية النظم وجهود البلاغيين في قضيتي اللفظ والمعنى) ويكشف عن المحاور الأساسية التي عالجها البحث في تحديد المعنى الدقيق لمفهوم (النظم) وتأرجحة بين مفاهيم مقاربة ولصيقة لمفهوم النظم عند علماء البلاغة من أمثال الجاحظ وبشر بن المعتمر والباقلاني وغيرهم من البلاغيين والقدماء. ومن ثم مقاربة هذه الآراء بالطروحات الحديثة لعلماء الغرب أمثال فرديناند دو سوسير وجومسكي وغيرهم، كما تطّرق البحث للأثر الذي تركه علمي البيان والمعاني على مفهوم النظم وماهية التداخلات التي ألقت بظلالها في تحديد الأثر الذي تركه هذان العلمان على مفهوم النظم وبخاصة لدى الإمام عبد القاهر الجرجاني وصولاً إلى الخاتمة التي أشار فيها البحث إلى الجهود التي تركها الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) في بلورة وتحديد هذا المفهوم.

كلمات مفتاحية : نظرية النظم ، البلاغة

Systems Theory And The Efforts Of Rhetoricians In The Issues Of Pronunciation And Meaning

Dr. Hamid Issa Karif

hamidessa@ouc.edu.iq

Osol ALdeen University College - Department of Arabic Language

Abstract

This summary provides illumination of what was stated in the research titled (Theory of Systems and Efforts of Rhetoricians in the Cases of Pronunciation and Meaning) and reveals the main axes that the research dealt with in determining the precise meaning of the concept of (systems) and a translation between concepts that are close and close to the concept of systems among rhetoric scholars such as Al-Jahiz and Bishr bin Al-Mu'tamir, Al-Baqalani and other rhetoricians and ancients. And then the approach of these views with the modern propositions of Western scholars such as Ferdinand de Saussure, Jomsky and others. To the conclusion in which the research referred to the efforts made by Al-Jurjani in his books (Dala'il Al-I'jaz) and (Asrar Al-Balaghah) in crystallizing and defining this concept.

Keywords: systems theory, rhetoric

المقدمة

لو اطلعنا على تاريخ الأدب العربي في جانبيه النقدي والبلاغي، وحاولنا استشفاف أهم ما أنجزه العلماء العرب في هذا الميدان، لوجدنا أن نظرية النظم من أهم منجزات التراث العربي في هذا المجال، فنظرية النظم لم تنشأ فجاءة، ولم تظهر إلى الوجود من خلال باحث واحد، فقد أسهم فيها علماء كثيرون، ومرت في ظروف مختلفة إلى أن استوت ناضجة ولها معالم واضحة ومنهج مستقر، ولهذه النظرية أهمية كبيرة، فبينها وبين الدراسات الأسلوبية الحديثة شبه كبير، ولها امتداد تاريخي في عمق التراث العربي الإسلامي، حين بدأ العلماء يبحثون عن الوجه المعجز في القران الكريم، لذلك نشهد بذور نشأتها وتكوينها في الدراسات القرآنية، وبعد أن ظهرت ونضجت انتقلت إلى الدراسات الأدبية.

والحقيقة أن المسألة التي نحن بصددها، والتي هي مدار بحثنا، تُقضي بنا إلى شيء من التوسع والامتداد، بدءاً من الدراسات التي خاضها العلماء حول مسألة الإعجاز القرآني منذ القرن الثاني للهجرة، وحتى القرن السابع حيث شملت دراساتهم موضوعات اللفظ والمعنى والفصاحة والبلاغة والاستعارة والكناية والمجاز وفنون البديع المختلفة، ولما كان مقام البحث لا يتسع لهذه الإطالة وهذا الاتساع، اقتصرنا في بحثنا على الانجاز الذي تحقق على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغيين والمؤسس الفعلي لنظرية النظم، باعتبار أن نظريته في علم المعاني هي اكمال وتتويج للدراسات السابقة، واستضاءة وانطلاق لمن جاء بعده من البلاغيين مع عدم الإغفال لجهود أولئك البلاغيين وذكر مواقفهم عند تناول أبعاد هذه النظرية وتطورها على يد الجرجاني.

وقد اعتمدنا في هذا البحث بدءاً على توضيح مفهوم النظرية والبحث عن أصول نشأتها ودواعيها، ودور الجرجاني في بلورتها كنظرية ناضجة متطورة عن نظرية العلماء للفظ والمعنى والمجاز بحثاً عن الكلام البليغ والنظم المعجز، وأثر علم المعاني والبيان في جلاء هذه النظرية من خلال بعض النصوص التطبيقية.

مفهوم النظم عند الجرجاني

النظم في اللغة، التأليف، وهو ضمّ الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد، ويستعمل النظم في كلّ شيء، حتى قيل: ليس لأمره نظام، أي لا تستقيم طريقته، والنظام الخيط الذي يُنظم به اللؤلؤ وغيره[1].

وقد فرّق البلاغيون قبل الجرجاني بين النظم والتأليف، فهما ليستا مترادفتين، وإنما هما كلمتان مختلفتان في الدلالة، الأولى تعني النوع، والثانية تعني الضمّ. أما عند الجرجاني فإن النظم في القرآن الكريم لا يعني النوع، ولا يعني كذلك أن تكون حروف القرآن منظومة نظماً لا على أساس واضح كما تهيّأ لبعض العلماء ولم يستطيعوا كشفه، وإنما النظم عنده يقوم على معاني النحو[2]، إذ نراه يعرّفه لأكثر من مرة، وفي مواطن متعددة في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) إذ يقول:

(واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم للكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها من بعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك، وهذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحدٍ من الناس)[3].

وقوله أيضاً:

(معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضهما ببعض، وجعل بعضهما بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم، وفعل وحرف، وللتعلّق فيما بينهما طرق معلومة)[4].

ونفهم من ذلك أنّه يُقدّم للنظم ببعضٍ من أصول النحو، وقد ذكر منها الإسناد (أن تعلّق بعضها ببعض)، وقد يبدو أن أصول النحو تتطابق مع النظم أو مع معاني النحو، لذلك بادر عبد القاهر إلى التفرقة بينهما، فأصول النحو تعني قوانين التركيب التي تنتمي إلى اللغة من حيث هي مفاهيم مجرّدة مشاعة بين المتكلمين، وأما النظم فهو الذي يحصر الخصائص الفنية أو الأدبية في الكلام، شعراً كان أو نثراً، بدليل أنّه من تحدّث عن أصول النحو ذكر قوانين مجملة، وفي حديثه عن النظم ذكر وجوه التعلّق وفروقه مما يعود إلى المتكلمين[5].

أصل فكرة النظم عند الجرجاني

إنّ الوقوف على أصل فكرة النظم عند الجرجاني يفيدنا في تفهّم مجمل نظرية النظم، وفي كشف سمات التشابه بينهما وبين ما تذهب إليه في العصر الحديث مذاهب النقد المعاصر. إذ تستند فكرته على التفريق بين استعمال اللغة بقصد الإشارة، واستعمالها بقصد التعبير عن الإنفعال، أي التفريق بين الألفاظ التي تكتفي بالإشارة المجرّدة إلى الصورة الباردة للشيء، والألفاظ التي تعبّر عن حقيقة الشيء، وعلى هذا التفريق تكون الألفاظ المفردة عنده علامات اصطلاحية للإشارة إلى شيء ما، وليست للدلالة عن حقيقة الشيء، وما دام اللفظ المفرد إشارة مجرّدة، فإنّ اللفظة لا يمكن أن تدل على معنىً محدد، وإنما تدل على معنىً مجرد، وما دامت تدل على معنى مجردّ فهي تحمل مئات المعاني، ومن ثَمَّ فلا معنى لها.

ولكن متى تؤدي اللفظة المفردة معنىً محدداً؟ الجواب أنها تؤدي معنىً محدداً إذا استُعملتْ في سياق، فالسياق وحده هو القادر على أن يمنح اللفظة المفردة دلالتها المحددة، وهو وحده كذلك القادر على أن يمنحها القدرة على الحركة والعمل[6].

وهنا يلتقي الجرجاني مع أحدث الدراسات اللغوية التي جاء بها العالم (فرديناند دوسوسير) والتي ذهبت إلى أنّ العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية. لذلك فقد أكدّ الجرجاني (أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتُعرف بها معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضم بعضهما إلى بعض فيُعرف فيما بينهما فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم)[7].

كما أن نظم الكلمات في السياق الصوتي هو كونه صياغة تركيبية لسياق لغوي، لذا مهما تناسقت ألفاظ الكلمات وهي منعزلة عن السياق فليس لها دلالة ولا فائدة، فالتناسق الصوتي للكلمات لابدّ أن يظهر من خلال السياق، فليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، فالسياق هو الذي يحدد فيما إذا كانت الكلمة مستكرهة أو قبيحة، أو حسنة، فقد تُستعذب الكلمة وتحلو في سياق، وقد تُستهجن أو يقلُ حسنها في سياق آخر[8].

ويستشهد الجرجاني على هذا المعنى بكلمة (الأخدع)، فقد وردت هذه الكلمة في أكثر من سياق وبدت حسنة ومقبولة في بعضها، على حين بدت كدرة مستهجنة في بعضها الأخر، إذ يقول:

(ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع).

البحتري:

وإني وإن بلّغتني شرف العلى وأعتقت من رقّ المطالع أخدعي

أبو تمّام:

يا دهر قوّم مِن أخدعيك فقد أضججت هذا الأنـــــام مِن خُرُقِك

ففي البيت الأول فيما يخفى من الحسن، ثم إذا تتأملها في بيت أبي تمّام تجد لها من الثقل على النفس من التغيض والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفّة والإناس والبهجة[9].

فالألفاظ عند عبد القاهر الجرجاني ليست إلاّ دوالاً على المعاني، وهي لا تكتسب بلاغتها إلاّ إذا دخلت في علاقات تركيبية مع غيرها من الألفاظ [10]. لذلك يقول:

(إنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك)[11].

علاقة اللفظ بالمعنى

شغلت قضية اللفظ والمعنى القدماء، وانقسموا إثر ذلك إلى فريقين: فريق يؤيد اللفظ، وآخر يؤيد المعنى، فمن فضّل اللفظ على المعنى اعتمد مقولة الجاحظ: (والمعاني مطروحة في الطريق، بعضها العجميّ والعربيّ والبدويّ والقرويّ والمدنيّ، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير)[12].

وعبارة الجاحظ توهم بأن الفضيلة كلها في جانب الألفاظ عندما يستقيم وزنها، ويُحسن اختيارها، ولكن عبد القاهر يرى أن الأقدمين قد فهموا عبارة الجاحظ على غير وجهها، فالمطلوب هو معرفة معاني الكلام وصفات الألفاظ تأتي من المعاني وليس من الألفاظ ذاتها، ولا يمكن معرفة موضوع اللفظ دون معرفة معناه فإذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها ترتبت لك بحكم أنها حذم المعاني، وتابعة لها[13].

فقد أنكر الجرجاني الإحتفال باللفظ دون المعنى، وردّ على أصحاب هذا الرأي بقوله: (اعلم أن الراء الرويّ والذي أعيا أمره في هذا الباب غلُط من قدَّم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلاّ ما فَضَلَ عن المعنى، يقول: ما في اللفظ لولا المعنى وهل الكلام إلاّ بمعناه)[14].

وعندما تعرّض ابن قتيبة لقول الشاعر:

ولمّا قضينا من مِنى كلّ حاجة ومسّحَ بالأركان من هو ماسحُ
وشُدّتْ على حدب المهاري رحالنا ولا يعرف الغاوي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطـراف الأحاديث بيننا وسالت بأعنـــاق المطيّ الأباطحُ

وعاب على هذه الأبيات بأنها أحسن ما تكون من حيث المخارج والمطالع والمقاطع، إلاّ أنّه لا طائل في معناها، نرى الجرجاني ينكر على أصحاب هذا الرأي ويصفهم بأنهم (يفردون اللفظ عن المعنى ويجعلون له حسنا على حده، ورأوهم قد قسموا الشعر فقالوا: إن منه ما حسن لفظه دون معناه، ومنه ما حسن معناه دون لفظه، ورأوهم يصفون اللفظ بأوصاف لا يصفون بها المعنى أن للفظ من حيث هو لفظ حسنا ومزية ونبلاً وشرفاً، وأن الأوصاف التي نحلوه إيّاها هي أوصافه على الصحة)[15].

لذلك فهو يرفض أن يختصّ النظم أو الإعجاز القرآني باللفظ دون المعنى أو بالمعنى دون اللفظ، وإنما من ائتلاف عنصري اللفظ والمعنى، حتى يتولّد من هذين العنصرين عنصر ثالث وهو ما يسمى بالفكرة أو الصورة الشعرية. وبذلك فإن الجرجاني لا يرى أن هناك انفصال بين اللفظ والمعنى في عملية الخلق الأدبي، فكلاهما يولد في اللحظة ذاتها، وهو ما يحدد قيمة النص الأدبي. فهناك معانٍ يعظمها جميع الناس، لكن قد يضع الحاذق منها ما لا يصنعه غيره، إذ يقول:

(تنظر إلى قول الناس: الطبع لا يتغير، ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه، فترى معنى غفلاً عامياً معروفاً في كل جيل وأمه، ثم تنظر إليه في قول المتنبي:

يُرادُ من القلبِ نسيانكم وتأبى الطباعُ على الناقلِ

فتجده قد خرج في أحسن صورة، وتراه قد تحوّل جوهرة من بعد أن كان خرزة، وصار أعجب شيء بعد إن لم يكن شيء)[16].

وهذا تماماً ما ذهبت إليه الدراسات الحديثة عندما أقرّت (أن كلمة ما تتضمن طبقاً لحالتها معنىً فكرياً بحتاً، وآخر شخصياً عاطفياً، يحدد أولهما إلى ذكاء الإنسان، ويرجع الآخر إلى حساسيته، وهما يمارسان تأثيرهما في نفس الوقت بطرائق مختلفة)[17].

أثر علم البيان والمعاني في النظم عند الجرجاني.

يرى الجرجاني أن التمييز بين كلام البلغاء لا ينصرف من حيث هو ألفاظ مفردة أو مجموعة من الصفات السلبية أو الإيجابية، ولكن بين صياغة هذه الألفاظ لكي تنجح نجاحاً باهراً في إثارة الموقف وتأدية الغرض المطلوب.

إذن ففصاحة الألفاظ وبلاغتها لا ترجع إلى الألفاظ بشهادة الصفات التي توصف بها، وإنما ترجع إلى صورتها وتعرضها الذي تتجلّى فيه، وبعبارة أخرى ترجع إلى نظمها وما يُطوى فيه من خصائص ومعنى ذلك أن هذه الصفات ليست صفات للألفاظ نفسها، وإنما هي صفات عارضة لها في التأليف والصياغة بسبب دقائق بلاغية لم تكن لها قبل سياقها الذي أخذته في صور نظمها[18].

إن واقع بحث عبد القاهر في نظم القرآن يؤكد أنه صبَّ اهتمامه على النظم صبّاً، بحيث قرن ذلك ببلاغة القرآن في المجاز والاستعارة والكناية وضروب البديع، ولم يعمد إلى تجلية تفوق هذه البلاغة وهي مفردة،

وإنما ضمّها إلى النظم ضمّاً، لا تقوم إلاّ به. من ذلك قوله في الاستعارة: إن فيهما ما لايمكن بيانه إلاّ من بعد العلم بالنظم، والوقوف على حقيقته، وضرب لها مثلاً قوله تعالى: " واشتَعلَ الرأسُ شيباً " مريم: 4.
حيث لم يزود الناس فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلاّ إليها، أما هو فقد أوضح سبب ذلك بما يأتي[19] :-
1- إسناد الفعل (اشتعل) إلى (الرأس)، والرأس لا يشتعل، وإنما الشعر الذي في الرأس.
2- مجيء فاعل (اشتعل) تمييزاً، لبيان أنّ ذلك الإسناد من أجل هذا التمييز.
3- تعريف (الرأس) بالألف واللام، وإفادته معنى الإضافة من غير إضافة.
4- استعارة (اشتعل) للشيب، لإفدة لمعان السيب في الرأس، وهو أصل المعنى.
وعلى هذا فإن القيمة الفنية للتشبيه والاستعارة والكناية وسائر ضروب المجاز الأخرى، ليست متأتية من كونها أساليب للتعبير المجازي، وإنما في تركيبها وتنسيقها بنظم فني معجز يتطلبه الوضع كما في قوله تعالى: " واشتعل الرأس شيباً "[20].
وعندما ينظر الجرجاني إلى الأساليب الفنية فيما يخص المعنى يقول: (الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ، وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد: وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق: وعلى هذا القياس، وضربٌ آخر انت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالةً ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل. أو لاترى أنّك إذا قلت: هو كثير رماد القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرّد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك كمعرفتك من كثير الرماد أنه مضياف، ومن طويل النجاد أنه طويل القامه، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفها أمرها... وإذا قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى...)[21].
(فجديد عبد القاهر هو اكتشافه " معنى المعنى " الذي يقوّل فيه المدلول دالاً، فقولنا " بعيدة مهوى القرط " كناية عن طول عنق المرأة، وهذا هو " المعنى الأول " الذي يتبلور إلى الذهن مباشرة، وفيه تصبح الألفاظ دالة على " المعنى " الذي هو المدلول، أما " المستوى الثاني " أو " معنى المعنى " فهو أن طول عنق المرأة كناية عن " الجمال ". يقول عبد القاهر: " فالمعاني الأوّل " المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحال وأشباه ذلك. و " المعاني الثواني " التي يؤمأ إليها بتلك المعاني هي التي تكسي تلك المعارض، وتزين بذلك الوشي والحال... وجملة الأمر، أن صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ حين يكون هناك اتساع ومجاز، وحتى لا يُراد من الألفاظ ظواهر ما وضِعت له في اللغة ولكن يُشاد بمعانيها إلى معانٍ أخر)[22].
أما فيما يتعلّق بعلم المعاني، كالتقديم والتأخير والوصل والفصل والاضمار والذّكر وغيرهما، فقد شغلت حيّزاً كبيراً عند الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، فهو يرى أن الفرق بين تركيب وآخر ليس فرقاً بالحركات الإعرابية أو قواعد النحو، وإنما في معاني هذه التراكيب التي يحدثها الوضع، إذ نراه يقول: (واعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها)[23].
ولمّا كان المتكلم يحدد طبيعة غرضه، ووجوه التعلق بين عناصره في نفسه، وبخالص فكره، فقد دلّت معاني النحو على تطابق اللفظ مع المعنى (الفكرة قبل أن تتشكل)، وإذا لم يتم التطابق المذكور فسد النظم، والتبست الطرقُ المؤدية إلى الغرض من الكلام، واضطر القارئ إلى إعادة تركيب الأجزاء وتنسيقها، حتى يحصل على صورة المعنى، يتّضح هذا في تحليل عبد القاهر لبيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلاّ مُملّكاً أبو أمّه حيٌّ أبوه يقاربه

فقد اتفق النقاد على فساده، بسبب ما فيه من تقديم وتأخير على غير الوجه، أما عبد القاهر قد بيّن فساد نظمه بالاعتماد على المفارقة الحاصلة فيه بين تركيب المعنى في الفكر، وترتيب الألفاظ في الذكر[24]، فقال: (انظر أيتصور أن يكون ذمُّك للفظه، من حيث إنك أنكرتَ شيئاً من حروفه، أو صادفت وحشياً غريباً، أو سوقياً ضعيفاً، أم ليس إلاّ لأنه لم يرتب الألفاظ في الذكر، على موجب ترتّب المعاني في الفكر، فكدّ وكدّر، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلاّ بأن يقدّم ويؤخر ثم أسرف في إبطال النظام، وإبعاد المرام، وصار كمن رمى بأجزاء، تتألف منها صورة، لكن بعد أن يُراجع فيها بابٌ من الهندسة، لفرط ما عادى بين أشكالها، وشدّة ما خالف بين وضاعها)[25].

انتقل الجرجاني من ذلك إلى تطبيق نظريته في جمال النظم، وكان مما اختاره لهذا التطبيق أبيات للبحتري في مدح الفتح بن خاقان، وهو يعرضها على هذا النحو، يقول:

(اعمد إلى أبيات البحتري

بلونا ضرائب من قـــد نرى فما إنْ وجدنا لفتح ضريبا
هو المرءُ أبدت له الجادثات عزمـــاً وشـيكاً ورأيــاً صليبا
تـنقّل فـــي خُلُقــي ســـؤددٍ سماحاً مرجى وبأساً مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً وكالبحر إن جئته مستثيبا

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازاً في نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلاّ أنّه قدّم وأخّر، وعرّف ونكّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكر، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله ثم لطف موضع صوابه، واتى ماتياً يوجب الفضيلة، أفلا ترى أن أوّل شيء يروقك منها قوله: " هو المرء أبدت له الحادثات "، ثم قوله: " وكالبحر " ثم قرن إلى كلّ واحدٍ من التشبيهين شرطاً جوابه فيه، ثم أن أخرج من كلّ واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: " صارخاً " هناك، و " مستثيباً " هنا، لا نرى حسناً تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددتُ أو ما هو في حكم ما عددت، فأعرف ذلك)[26].

وفي ختاب بحثنا هذا، ومن خلال ما ذكرناه من نتف من إنجازات هذا العالم الجليل، يتضح لنا مما سبق أن الإمام عبد القاهر الجرجاني قد استطاع في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) من طرح نظريته وتفسيرها وتطبيقها بنظرة شمولية على جوانبها المترامية بحيث يمكننا بحق أن نعد إنجازه في هذا المجال يوازي أحدث ما وصلت إليه الدراسات الحديثة والمعاصرة، لولا ما أصاب الأدب العربي ومنه البلاغة العربية من جمود وتخلّف ضيّع عليها فرصة الاستفادة الحقة من آثاره الجليلة، ومواكبة التطور النقدي والبلاغي على نحو ما وصلت إليه مثيلاتها في الغرب. ومن الحق أن نقول أيضاً أن على هذه الأجيال أن ترتقي إلى مستوى الوفاء لهذا العالم الجليل الذي أدّى ووفّى، بأن تحضى كتبه وإنجازاته حقها من الدرس والعناية في وقتنا الراهن والفترات اللاحقة... والله لا يضيع أجر العاملين.

المصادر والمراجع

1- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت، لبنان – ط3 – 2004م.
2- ينظر البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد – محمد كريم كواز – الانتشار العربي – بيروت – ط. 1– 2006م. (ص309-314).
3- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – تحق. محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت، لبنان – ط. 3 – 2001م. (ص 54).
4- نفس المصدر – ص 63.
5- البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد - محمد كريم كواز – الانتشار العربي – بيروت – ط. 1 – 2006م. ص315.
6- نفس المصدر – ص 321- 322.
7- دلائل الإعجاز – ص 345.

8- الدلالة السياقية عند اللغويين – عواطف كنوش المصطفى – دار السياب للطباعة والنشر – لندن 2007م. ص 148.
9- دلائل الإعجاز – ص 49.
10- البلاغة تطور وتاريخ – شوقي ضيف – دار المعارف – مصر – 1965م. ص 162.
11- دلائل الإعجاز – ص 37.
12- البيان والتبيين – الجاحظ – تحق عبد السلام محمد هارون – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – 1948م. ص 83.
13- مجلة الموقف الأدبي – محمد عزام – ص 81.
14- دلائل الإعجاز – ص 170.
15- نفس المصدر – ص 76.
16- نفس المصدر – ص 271.
17- علم الاسلوب مبادئه واجراءاته – صلاح فضل – ص 18.
18- البلاغة تطور وتاريخ – شوقي ضيف – ص 164.
19- البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتحديد – محمد كريم كواز – 320.
20- د. زينة عبد الجبار – محاضرة في الجامعة المستنصرية – 2009م.
21- دلائل الإعجاز – ص 177.
22- مجلة الموقف الأدبي – محمد عزام – ص 87.
23- دلائل الاعجاز – ص 56.
24- البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد – محمد كريم كواز – ص 316.
25- أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – تحق محمد محمد شاكر – دار المداني – جدّه – ط. 1- 1991م. ص 20.
26- دلائل الاعجاز – ص 72- 73.